

الأفغال..

نحو تأسيس قراءة تاريخية لما جرى

خالد سليمان - مونتريال / 2000

garmiane@hotmail.com

يقف الكردي، أي كردي، حائراً أمام اللغة بكل أشكالها التعبيرية والبلاغية والرمزية لوصف الأفغال وما تحمله من معانٍ وصورٍ للموت. حتى الذي رآها وعاشها لم يعد قادراً للتذكّر، لأن التذكّر لما جرى يعني الموت أيضاً، الذي تبدى فيه الجسد الكردي وصار حقلاً خصباً لاحتفالٍ دموي متكاملٍ من كل عناصر الإفناء والإبادة.

كان الاحتفال ذاك / هذا - مستمراً في إنتاج خطاب الإفناء - متوزعاً بين خطابات القتل المتعددة في ساحات اللاقتال التي نتحدث عنها فيما بعد. أما الآن، فالأهم هو مقاربة عمليات الأفغال ضد الكرد وأساليب القتل فيها مع الذات الفاعلة لها، ثم الذات الثانية التي أصبحت مشروعاً للإبادة.

لقد وظّفت سلطة (البعث) جميع إمكاناتها التقنية والإيديولوجية لهذه العملية وجسدت مستويات همجية متعددة للاستئصال واقتلاع الإنسان الكردي من الأرض. فالقتل لدى البعث كان - وما يزال - له معنى واحد، سواء كان المقتول مسلحاً أو امرأة أو طفلاً أو عجوزاً، ووظيفة القاتل هو أن يرى مجد صدام حسين أمامه وهو يفني حياة الناس العزل في قرى معزولة عن العالم. فصار للقتل المتعة والنشوة للقاتل، وأصبحت أرض كردستان أميركا ثانية في التاريخ، لكنها تُكتشف وتُفتح لا على أيدي الأوروبيين الغزاة، بل على أيدي البعثيين وجنودهم بأحصنة حديدية نقّاشة على الأرض وفي السماء. بحيث فقد الكردي كل وسائل اتصاله مع الذات والعالم الخارجي على أثر هذا الاكتشاف، ومع السماء أيضاً. لأنه أعزل كلياً عن الكون وما عاد يدرك ما يحصل حوله سوى أنه يموت، وبأشكال وأساليب فاشية متعددة ابتدعها نظام فاشي قد يكون الأول من نوعه في إنتاج خطاب الموت في عصرنا الحديث.

الأنفال، بمراحلها وأشكال تنفيذها على أرض كردستان، أدخلت الشخصية الكاريزمية العربية - البعثية وأشباهها - والنظام الفكري الذي ثمته إلى ساحة لا قتالية مليئة بالأسرار الأيديولوجية والسياسية، وهي أيضاً -الساحة اللاقتالية أو الجسد الكردي- أحد الحقول الرئيسية للممارسة الفعلية لتوسيع ذلك النظام الفكري، وكذلك إحدى المقومات الاستراتيجية في حال انصهاره أو القضاء عليه للحدثة العربية - البعثية - التي تحمل في أحشائها مشروع مجتمع جديد يعتمد الأصالة العرقية في مجالات اللغة والتاريخ والجغرافيا والذاكرة.. الخ، ولأن تكوين العراق الحديث التابع للكولونيالية الأوروبية التي ألحقت به أجزاءً واسعة من أرض كردستان من عام "1916 الى 1924"، هو تكوين مختلف ثقافياً وحضارياً، والكردي رغم كل أشكال الاضطهاد السياسي المتبعة ضدهم لم يدخلوا النسق الثقافي العربي. أي أن فضاءات اللغة والتاريخ والجغرافيا والذاكرة العربية التي استثمرها البعث لمشروعه الإيديولوجي الذي يكمن في أحشائه (المجتمع المُدجّن)، واجهت وتواجه دائماً حالة ثقافية أخرى تتميز بقيم حضارية وأخلاقية مغايرة عما يتبناه هو. لهذا بقيت محاولات تبعية المجتمع الكردي وطوقه ضمن دائرة الإيديولوجيا البعثية للتدجين، محاولات عقيمة ولم تستطع العبور إلى نقطة تدل على عدم قابلية الكردي للرفض واللامقاومة.. وكانت الأنفال؟!.

أرى نفسي مضطراً هنا للولوج، ولو بشكل سريع إلى حيثيات المشروع البعثي في العراق. لأن الحديث عن الأنفال وتأثيراتها السياسية والاجتماعية والنفسية والإيكولوجية على المجتمع الكردي دون ربطه بالعمق الاستراتيجي للبعث كحركة فاشية في العراق لا يعني شيئاً. وفي مثل هذه الحال نرى من الضروري الرجوع إلى بعض المنطلقات السياسية لهذه الحركة وأقوال مؤسسها "ميشيل علق" ومن ثم تبنيها كوعي سياسي أنزل على الأرض.

يمكننا التطرق أو نعين المشروع البعثي الفاشي في العراق من خلال هذه الأقوال:

I يقرّ البعث في المادة الخامسة عشر من دستوره بأن الرابطة القومية هي الرابطة الوحيدة القائمة في الدول العربية التي تكفل الانسجام بين المواطنين وانصهارهم في بوتقة أمة واحدة، وتكافح كافة العصبية المذهبية والطائفية والقبلية والعرقية والإقليمية.

II إن قيمة الإرادة في تقرير الارتباط القومي يتوسع الآن من خلال توسيع خارطة الوطن العربي، كما هو عليه الآن بالنسبة لانتساب أريتريا والصومال إلى الأمة العربية وربما تظهر في المستقبل امتدادات أخرى.. فلو كانت الأمة العربية تمر بمرحلة انحطاط لما اتسعت خارطتها.. غير أن عوامل الصحة في نمو متساعد ولهذا نجد أن خارطة الأمة تتسع.

III إن حزب البعث العربي الاشتراكي هو الحزب الطليعي الذي يمثل الجماهير، كل الجماهير التي تعيش في الوطن العربي بصرف النظر عن لغتها وسماتها القومية، وهو

المدافع الأمين والمناضل الصلب عن قضيتها، وهو الذي يقودها على طريق الحرية وعلى طريق المجتمع الموحد في الوطن العربي.

IV العربي من كانت لغته العربية وعاش على الأرض العربية، أو تطلع للحياة فيها وآمن بانتسابه إلى الأمة العربية.

V طوال قرون عديدة كان الأكراد مواطنين عرب مسلمين كغيرهم من العرب المسلمين لا يوجد أي فرق بينهم عندما كانت البلاد العربية تشكل دولة أو دولا عربية إسلامية. وفي العصر الحديث كانت الدول الاستعمارية هي البادئة بإيجاد الفروق وعوامل التمييز بين العرب والأكراد، سواء باضطلاعها بمهمة التتقيب عن المميزات التاريخية واللغوية والعرقية للأكراد لتكوّن ذلك منطلقاً للانقسام في بلدان المنطقة التي كانت هذه الدول تخطط لاستعمارها منذ القرن الماضي.

تُجسد هذه الأقوال العمق الاستراتيجي لإيديولوجيا البعث المفترضة لخارطة المستقبل السياسية والثقافية للأمة العربية التي يقترحها علينا. فالاختلاف اللغوي والتاريخي والجغرافي والإثني يتجلى هنا وكأنه ظاهرة استعمارية اقترحت من خلال البعثات الأثرية الأوروبية للتتقيب من أجل تفكيك الأمة العربية. وكانت النظرة هذه، عنصر تكويني أساسي في المحاضرات التي ألقاها "ميشيل عفلق" في لقاءاته مع طلبة العرب في كل من المغرب العربي والعراق وسوريا ولبنان.

وعلى نفس هذه القاعدة الفكرية للانتماء للعروبة نرى أن كلمات مثل (الانصهار، الأمة الواحدة، توسيع خارطة الأمة).. الخ، من الكلمات هي المولدة الأساسية للصيغ النظرية الواردة في برنامج الحزب السياسي. ثم إن "الأخر" هو الهدف المرصود للحديث عنه قبل الحديث عن العرب. وهذا الآخر الذي هو الكرد، يشكل التهديد الأول لمشروع البعث النهضوي للعرب. لهذا نلاحظ حضوره الأقوى في البرنامج السياسي للبعث كعنصر مُعرقل لمشروع الثقافة العربية. وإذا تفحصنا رموز هذه البنية الفكرية التي انطلق منها البعث في بدايات تكوينه، نرى أن تغليب العنصر العربي ثقافياً ولغوياً وتاريخياً وحتى جغرافياً على الثقافات الأخرى في المنطقة هو المشروع الأساسي للتحوّل الذي افترضه الحزب (العربي).

وكان للمنطق الفكري هذا أسباب كثيرة يمكننا تلخيصها بالشكل التالي:

I الوضع الجيوبوليتيكي المترعزع في العراق، كونه وضع "مابعد - استعماري"، لا يمتلك خصوصيات طبيعية بسبب إصاق أجزاء واسعة من أراض كردستان به ضمن اتفاقية استعمارية دولية.

|| تأثير اللغة العربية في هذا الإقليم باللغتين الفارسية والكردية، "العراق".

||| بقاء المجتمع الكردي، رغم خضوعه لسلطة شمولية، ضمن تقاليده الثقافية والحضارية، إذ بقيت اللغة الكردية تحافظ على أنساقها ورموزها وأشكال استخدامها الكتابي والشفاهي، بالإضافة إلى مقاومة الكرد ضد أية لغة جديدة تُفرض عليهم باستثناء ممارسة الصلاة باللغة العربية. أما الطقوس الدينية الأخرى فتأقلمت ضمن البيئة الكردية.

IV ظهور وعي سياسي كردي في بداية القرن العشرين، وحدث من خلاله تغيير في البنية الثقافية لدى شرائح الكرد المثقفة. وكان لهذا التغيير امتداداته في كافة أجزاء كردستان المقسمة على دول المنطقة.

V فصل الإسلام عن العرب، إذ صار الإسلام عند الكرد ديناً و عقيدة دون صلة له بالعروبة. عكس ذلك قام الكرد بدمج الإسلام بثقافته اللغوية والشعبية والتاريخية. هنا يتبادر إلى الذهن نقطة أخرى تتضمن مستويات مختلفة من التأويل الفكري والسياسي ألا وهي تعرض طوائف ومجموعات ثقافية أخرى، عربية وغير عربية إلى محاولة احتواءها في نفس المشروع التوسعي البعثي " كالدروز والبربر " كونها مجموعات تتسم بشيء من الخصوصية الثقافية والاجتماعية. ولا تشكل هذه المساحة جزء من هذا المقال.

لنتك الأسباب وغيرها بدأ التنظير البعثي مع ولادته بالحديث عن الانتماء للعروبة لغة وتاريخاً وعرقاً، لأن "الأخر" عنده، رغم كل خصوصياته الثقافية والعرقية، عربي، أو يجب تعريبه بغية الوصول إلى مشروع الثقافة العربية، بمعنى آخر قيام وتسيير مشروع النهضة العربية على عجلات الحاملات البعثية. وكان لهذه الحاملات تعريفاً واضحاً ومركباً بين القول النظري والواقع العربي المكبل بالتخلف، وهو "المدرسة المستعجلة". أطلق هذا التعريف من قبل " منيف الرزاز " وقد عبّر من خلاله عن القول الباطني للجميع الذي لم يقله بهذا الوضوح. و"المدرسة المستعجلة" في برنامج البعث لا تعني إلا الاستيلاء على السلطة وهي صيغة نظرية أيضاً تحتوي أشكالاً أخرى من الباطنيات البعثية وهي:

|| تجريد المجتمع من التعددية الثقافية.

|| السيطرة على الجينالوجيا المجتمعية، أي التبعية الشامل والقضاء على جميع الاختلافات الاجتماعية والثقافية ووضعها في دائرة البعث.

||| وضع صورة كاريزمية للرئيس، تكمن في سياقها التسامي النبوي والرجولة الاستثنائية بين العرب. سنأتي بالحديث عن هذه النقطة بالتفصيل فيما بعد.

IV تأسيس سلطة (بايو - فيزيكية) للكاريزما هذه، ثمكها لإفشال فعالية السلطات الاجتماعية والدينية والعائلية.

V تكريس مفهوم القتل بين شبكات الحزب ومن خلالها داخل المجتمع كإجراء طبيعي ضد اللإطاعة. وبالتالي تأسيس حالة "نعم" الدائمة لنموذج الكاريزما القومية الأفضل.

VI وضع حدّ للحالة الكردية التي هي كبرى البؤر السياسية -الثقافية في الشرق الما بعد - كولونيالي وانصهار الأقليات في جسد الأمة العربية.

بعد هذه المقدمة القصيرة عن منطلقات الإيديو - إجرامية لحزب البعث في المنطقة نستطيع الولوج في عمليات "الإفنا - عرقية" Génocide التي نفذها البعث في كردستان (الجزء الملتصق بالدولة العراقية) تحت اسم الأنفال(*) . وهي عملية / عمليات تحتوي كل عناصر "الإفنا - عرقية" إذا قارناها بالمبادئ الدولية التي تقرّر ذلك.

1- إفناء أعضاء مجموعة اجتماعية.

2- إلحاق الضرر الروحي والسايكولوجي بالأعضاء المنتمية لتلك المجموعة.

3- اختيار أساليب محددة لحياة المجموعة والسيطرة عليها من خلالها، و ثم إفناءهم.

4- وضع الدستور لتحديد نسبة النسل داخل المجموعة.

5- إبعاد الأجيال الجديدة للمجموعة قسراً ووضعهم عند مجموعة أخرى.

نلاحظ أن هذه المبادئ الدولية التي وضعت عام 1948 تطابق تماماً مع سياسات سلطة البعث ضد الكرد في العراق منذ الإتيان بها إلى الحكم. والذي بدأ بها خطوة خطوة وضمن مخطط مدروس يسعى لإنهاء العنصر الكردي. بدت ذروتها عام 1988. وأرى لزاماً علي العودة إلى ما قبل هذا التاريخ. كون الأنفال وباستثناء أسسها النظرية - الإيديولوجية التي تبدأ من عام 1947- ولادة البعث - لها امتدادات زمنية متفاوتة وأرى من الضروري التطرق إليها لا كعمليات منفصلة، بل مترابطة وتمتلك بعداً واحداً وهو التحكم بالجينالوجيا الكردية وتحديدها حسب النظرية البعثية.

وتتضح هذه الفكرة من خلال جملة قالها "عفلق": (إن مواجهة الفكر الهدّام لا يتم بالردّ والحوار، بل يتم بقتل حاملي ذلك الفكر والمقتنعين به) ويقول في مكان آخر: (إن الكرد في العراق وسوريا والبربر في مغرب الوطن العربي يشكلون العرقلة أمام مشروع الوحدة العربية ويجب إفناءهم).

بدأت الأنفال عام 1971 عندما قامت الحكومة العراقية بتنفيذ سياسة (التبعيث، التعريب، التهجير) في المناطق الكردية " كركوك، خانقين، شنغار، طوز خورماتو". واعتمدت هذه

السياسة على مصادرة أموال أكثر من 40 ألف عائلة كردية ومن ثم ترحيلهم قسراً، وبالتالي جلبت عشائر عربية إلى مناطق سكناهم. هذا ونفذت السلطة البعثية إمعاء ذاكرة الأمكنة بتغيير الأسماء الكردية فيها إلى أسماء عربية، بالإضافة إلى تشكيل بعثات أثرية تنقب وتعمل وفق نظرية الانتماء للعرب وعدمية غيرها، أي وضع حدّ لوجود الأمة الكردية. (تعليق : في الشطر السوري أيضاً من البعثية العفلقية العفنة تم القيام بهذه السياسة العنصرية حيال الأكراد هناك كمشروع " الحزام العربي " سيء الصيت وتهجير الأكراد من مناطقهم و جلب مواطنين عرب من محافظات أخرى ، وتغيير أسماء القرى و المعالم التاريخية الكردية إلى العربية بغية تغيير الطبيعة الديموغرافية للمناطق الكردية – أوراق كردية) وقد صدر خاص بخصوص هذه المسألة بتاريخ 7/5/1980 استناداً الى أحكام الفقرة "2" من المادة الثانية والأربعين من الدستور الوقت، وكان القرار بتوقيع " صدام " فيما يلي نصه:

1\ تسقط الجنسية العراقية عن كل عراقي من اصل أجنبي إذا تبين عدم ولائه للوطن والشعب والأهداف القومية والاجتماعية العليا للثورة.

2\ على الوزير الداخلية أن يأمر بإبعاد كل من اسقطت عنه الجنسية بموجب الفقرة "2" ما لم يقتنع بناء على أسباب كافية بأن بقاءه في العراق تستدعيه ضرورة قضائية أو قانونية أو حفظ حقوق الغير الموثقة رسمياً.

3\ على الوزير الداخلية تنفيذ هذا القرار.

توقيع

صدام حسين

(تعليق : في سوريا ، قامت الحكومة التي سبقت وصول حزب البعث إلى السلطة بانقلاب عسكري عام 1963 بمهمة تجريد شريحة واسعة من الأكراد من الجنسية السورية يبلغ تعدادها الآن أكثر من 250 ألف إنسان كردي في محافظة الحسكة ، وبذلك أراحت حكومة البعث من هذه المهمة " التاريخية " - أوراق كردية)

في عام 1976 هجرت القرى الكردية الواقعة في عمق (10 - 20 كم) مع الحدود الإيرانية وحُصر قاطني هذه القرى في مجتمعات قسرية أعدت لهم قبلاً. وبعد عام من هذا التاريخ 1977 موعداً إجراء عمليات الإحصاء السكاني العامة في العراق قامت السلطة ضمن مشروعه في التبعيث والتعريب بتحويل الأفضية والنواحي التابعة لمدينة كركوك كالكال(طوزخورما، كفري، خانقين، داقوق، سرقلعة، جلولاء) إلى مدينة تكريت مسقط رأس صدام. تزامناً مع هذا بدأت بفتح المدارس في القرى الكردية باللغة العربية. (أذكر هنا كيف جلبوا لنا كتب وألف باء العربية عام 1978 ونحن نعيش في قرية معزولة في مناطق كرميان التي ترجع جذور اللغة الكردية فيها وتاريخ قاطنيها إلى زمن الديانة الزرادشتية) استمرت هذه السياسة إلى عام 1979 الذي سيطر فيه صدام حسين عملياً على زمام الحكم

وبدأ بإبعاد "كرد اللور" - الفيلية- اذ تم ترحيل (300) ألف عائلة منهم الى إيران بالإضافة الى اعتقال (15) ألف شخص لم يعرف مصيرهم. جردوا هؤلاء الناس من جميع ممتلكاتهم الشخصية والمدنية وتم فصلهم بالمطلق عن المجتمع.

نستنتج هنا واعتماداً على تلك الوقائع أن النظام العراقي جسد كل الشروط الدولية التي تقرّ بوجود سياسة الـ«Génocide» ضد الشعب الكردي. لأنه اقتلع الإنسان من الأرض وسيطر على جميع الوسائل البشرية والثقافية والبيئية التي تساعد الإنسان للاستمرار في الحياة.

وإذا انتقلنا إلى مرحلة الثمانينات والتي بدأت الحكومة العراقية بحربها ضد إيران نرى أن (النشاط الإفنا - عرقي) Les actes du Génocide يزيد في القرى والأقضية والنواحي وأخذ يعطي أبعاداً تكون أكثر خطراً من السابق. لأن النظام بدأ يستخدم الأسلحة الكيماوية في المناطق التي يصعب قياسها بالسيطرة عليها. أما المناطق التي سيطر عليها فزج سكانها في مجتمعات قسرية وقلاع محكمة ومُسيجة بالمخابرات والأمن والعسكر والقوات الخاصة وميليشيات الحزب.

تساعدنا هذه الوقائع للوصول إلى (الواقع الإفنا - عرقي) réalité du Génocide والذي جسده الفاشية في كردستان وكانت ذروته "الأنفال"، التي كانت تحدياً حضارياً وأخلاقياً تجاه الكرد فرضه نظام فاشي أمام المجتمع الدولي. اتسمت الأنفال بجميع عناصر الإبادة (القتل الجماعي، حصر الناس في مجتمعات قسرية، حرق الأراضي وتدمير القرى (الأرض المحروقة)، اغتصاب النساء، استخدام الأسلحة الكيماوية المحرمة دولياً، تسميم منابع المياه في كردستان، الاعتقال العشوائي.. الخ من النشاط الإفنا - عرقي).

وكانت البداية لهذه العملية عام 1983 حيث أنفل فيها 8000 ألف من العشيرة البازارنية تحت جو من السكوت دولياً وإقليمياً، ثم استمرت تبعيئاً وتعريباً وترحيلاً في المدن التي ذكرناها، قصفاً وتدميراً وقتلاً في سائر القرى إلى عام 1987 الذي أصدر فيه النظام عفواً عاماً للكرد القاطنين في القرى الواقعة تحت سيطرة "البيشمة ركه" وفي العام ذاته بدأ النظام ببناء مجتمعات قسرية مسيجة بالميليشيات البعثية والقوات الخاصة ومرترقة الكرد للكرد الذين يتركون قراهم خوفاً من العمليات العسكرية المستمرة ضدهم، خاصة وأن إشارات هجوم عسكري شامل على كردستان بدت وشيكة. تضعنا هذه الأنفالات المتتالية التي بدأت نظرياً مع ولادة حزب البعث وعملياً مع استلامه للحكم في العراق، تضعنا أمام فكرة مهمة وهي أن الأنفال الكبرى 1988 لم تكن نتاج وضع سياسي وعسكري معين كالحرب العراقية - الإيرانية 1980 - 1988 أو الضغط على الحركة التحررية الكردية للاستسلام. بل كانت استراتيجياً بعثية استلهمت من تراث دموي في الثقافة القومانية، ومشروعاً لإعلان موت الكرد كما أقره "عفلق" من أجل مشروع أكبر وهو "الوحدة العربية" (**). وكان المخطط الهندسي البعثي للأنفال موزعاً بين مستويات عدة في التفكير والعمل. تبدى المستوى الأول فيها على شكل استعراض "فرجوي" لتكريس مفهوم الانتماء للعروبة المتجسدة في الشعار المركزي للحزب "أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة". أما الوجه الباطني للمستوى ذاته، فأخذ طابع الترقب والحذر من إحساس الإنسان الكردي بالاغتراب تجاه هذه الإيديولوجيا التي تدعيه للانصهار

والتلاشي أو بالأحرى الموت. لأن الشعار وما يحمله من معانٍ ورموز يضع "الأخر" أمام حالة من الخوف والحذر، لأن المستوى الثاني من التبعية هو الخوف بذاته وتتمخض عنه شروط قاسية للإخضاع. ولما بدت حقيقة رفض الكرد للانصهار - الموت - عرقياً مع الوضع العربي وعدم التخلي أيضاً عن الأرض التي هي الحياة والذاكرة، بدأت الواقعية البعثية بالعمل وفق إمكانيات واقع - المستوى الثالث وهي الكتابة الحفرية لشعار الوحدة والنهضة على الجسد الكردي بمعنى آخر دعوتهم للموت علناً. من هنا نتوصل إلى مفهوم "الساحة اللاقتالية" التي ذكرناها في بداية هذا المقال، وتعني هذه "اللاقتالية" الأنفال، لأنها اعتمدت كعملية "إفنا - عرقية" على اللاتوازن في التخطيط والقوة. كان الأول فيها - البعث وإمكاناته التقنية والإعلامية - يملك الآلة الحربية الحديثة من الطائرات والدبابات والمدافع والأسلحة الكيماوية والإعلام بالإضافة إلى قدرته على التعقيم على ما يقوم به. أما الثاني - الكرد - فما كان يملك غير الترقب لموت آتٍ من السماء والأرض.

وكان المجتمع الدولي في هذه المعادلة طرفاً للتعقيم لا أكثر، أي "المنافسة في الجريمة والصمت" حسب تعبير (يوتست هيلته رمان). أراه ضرورياً هنا الدخول إلى حيثيات هذه العملية - الأنفال - ولو جزئياً بغية تحديد هذه الساحة اللاقتالية وسلوك البعث فيها مع المدنيين الكرد العزل.

في عام 1987 قصفت القوات العراقية مراكز قيادات الاتحاد الوطني الكردستاني في مناطق "سركلووبروكلو" والحزب الديمقراطي الكردستاني والحزب الشيوعي العراقي في مناطق بهدينان بالأسلحة الكيماوية، وعندما رأت الحكومة العراقية سكوت المجتمع الدولي عن هذه الخطوة في اختراق القوانين الدولية للأسلحة المحرمة دولياً، وسعت نطاق عملياتها مطمئنة من عدم تحرك دولي، فكانت الأنفال التي بدأت في العالم ذاته، وشارك فيها (الفيلق الأول والخامس من الجيش، مديرية الأمن العامة، مديرية الاستخبارات العسكرية، فيالق من جيش غير نظامي "الجيش الشعبي"، ميليشيات من الحزب الحاكم "القوات الخاصة"، الحرس الجمهوري، أفواج من الأكراد المرتزقة للنظام "الجحوش").. بالإضافة إلى مساندة هذه القوات بالدبابات والمصفحات والمدافع الثقيلة والخفيفة والميدانية، والمروحيات والطائرات المزودة بالقنابل الكيماوية والأسلحة المحرمة دولياً. في البداية قصفت الطائرات أكثر من أربعين هدفاً في كردستان، ثم بدأت العمليات بقيادة (علي حسن المجيد) المعروف عند الكرد بـ "علي الكيماوي" تحت شعار (تصفية أو تجميع). ووزعت العمليات على ثلاث مراحل (21 إبريل - 20 مايو) و(21 مايو - 20 يونيو) أما الثالثة فبدأت بعد أربعة أشهر من هذا التاريخ. أحرقت خلال هذه الفترة أكثر من 700 قرية وحقول زراعية ومدارس ومساجد. ثم استمرت تحت أسماء الأنفالات الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة في جميع مناطق كردستان إلى شهر سبتمبر 1988 إذ أعلنت الحكومة رسمياً عن النهاية المنتصرة لعمليات الأنفال وعن "عفو عام عن الأكراد المخربين" (**).

نستطيع القول هنا أن الأنفال كانت "ساحة لاقتالية" بين نظام فاشي يملك جميع مفردات القتل والإبادة وبين ذات لا تملك حتى وسائل الدفاع، وكانت الساحة هذه، مجالاً حيويًا لتجسيد إيديولوجيا البعث وماراثوناته الأفنا - عرقية لتكريس العروبة على أجساد

الأخريين. فلننظر إلى هذه لوثائق التي تكشف الوجه الحقيقي لهذا الحزب قبل البدء بالأنفال في كردستان:

بعد أن تم تنصيب (علي حسن المجيد) وبقرار من ما يسمى بمجلس قيادة الثورة 9 / 2 / مارس / 1987 الرجل الأول وممثل قيادة الثورة في المنطقة الشمالية " كردستان"، حيث جاء في القرار الصادر من ما يسمى بـ(مجلس قيادة الثورة): (تُنفذ قرارات الرفيق علي حسن المجيد من قبل مؤسسات الدولة العسكرية والمدنية والأمنية، ويفرض قراره علي جميع المسائل التي تتعلق بمجالات عمل مجلس الأمن الوطني ولجنة شؤون الشمال) وهناك قرار آخر ومن صدام حسين يقول: " تُنفذ قرارات وتوصيات - المجيد - من قبل جهاز الاستخبارات العسكرية وقوات الأمن الداخلي وقيادة الجيش الشعبي وجميع القيادات العسكرية في الشمال دون المناقشة".

وقد قرّر "علي كيماوي" منذ لحظة تنصيبه القاتل الأول في كردستان من قبل "صدام"، أن يسيطر على وضع المنطقة خلال سنتين. وتكون خطوته الأولى تدمير القرى وتجميع سكانها في المجمعات القسرية. وقال في كلام واضح " لا يبقى منزل واحد في القرى الكردية في سهل اربيل إلا القرى العربية" - لا توجد قرى عربية في سهل أربيل - ثم يقول: " أنا أشرف بنفسي على العملية وإذا بقي منزل واحد سأعرف ماذا أفعل بالقيادة المسؤولة للعملية". وهذه الخريطة للمجمعات القسرية التي أعدت قبل الأنفال تثبت أن المدة التي اقترحها علي الكيماوي كانت خطة مدروسة عسكرياً وفي حال مقاومة "البيشمة ركة" فالسلاح الكيماوي هو الردع المناسب.

مكان	اسم المجتمع	
بين كفري وكالار	الصمود	1
شهرزور	النصر	2
=	الأخوة	3
=	حلبجة الجديدة	4
جم جمال	شورش	5
=	تكية	6
بازيان	بازيان 1 / بازيان 2	7/8
=	باين جان / كوبالة / أ لاي	9/10/11
دوكان	بيرة مه كرون	12
بشدر	حاج آوا / سروجاو	13/14

بكرة جو	تاسلوجة / قادسية	15/16
---------	------------------	-------

وبالنسبة للأسلحة الكيماوية، تعطينا هذه الوثيقة التي أعدت من قبل الأمم المتحدة تحت رقم (6 / 198 / 5) في 21 إبريل 1988 صورة توضيحية لعدد الضحايا في كردستان:

السنة	عدد الضحايا
1981	11
1982	29
1983	574
1984	2237
1985	3267
1986	11141
1987	13496
1988	13673

الآثار التي تظهر على الإنسان مستقبلاً:

- 1- الإصابة بالعقم أو تشوه الجهاز التناسلي مما قد يسبب ظهور حالات تشوه بالولادات أو حصول ولادات ميتة.
- 2- الإصابة بالأمراض السرطانية المختلفة سواء بصورة مباشرة أو لاحقاً.
- 3- تشوه الصفات الوراثية التي تنتقل من الآباء إلى الأبناء.

أما عمليات الأنفال الميدانية فانتست بسمات محددة وهي قصف مكثف في البر والجو وبالأسلحة الكيماوية على مواقع (البيشمه ركه) وقرى المدنيين ومن ثم هجوم عسكري شامل، يكون المهاجم "القاتل" فيه مخولاً بقتل كل إنسان وكل حيوان وتدمير المنازل، نهب كل الممتلكات وكل ما تقع عليه أيديه باعتباره غنائم حرب. وتتم إحالة الأسرى إلى قلاع مهياة سلفاً قرب مواقع القادة الميدانيين لغرض استجوابهم أولاً ومن ثم تسليمهم إلى فرق الإعدام المتكونة من عناصر مختارة من الاستخبارات والحزب الحاكم والأمن الداخلي. تزامناً مع هذا يتم مسح وتمشيط شاملين في الجبال والوديان للقبض على كل من يحاول العرب ووضع نقاط تفتيشية مُحكمة للقبض على كل من يحاول الهرب نحو المدن، ومن ثم البحث داخل المدن والقصبات عن الذين استطاعوا الوصول إليها.

إلى هنا كنا نتحدث عن المستوى الثالث لاستراتيجية البعث في كردستان، ننتقل الآن إلى المستوى الرابع الذي هو ذروة فاشية البعث. فبعد جميع العمليات التي تطرقنا إليها بشكل جزئي تمت إحالة عشرات الآلاف من الكرد رجالاً ونساءً وشيوخاً وأطفالاً إلى

مجمعات عسكرية كالـ"توب زاوه ، كوب ته به، قورتو، دبس"، وهذه كانت الخطوة الأولى، أما في الخطوة الثانية فتمت إحالتهم للمرة الثانية إلى جنوب العراق الصحراوي "نقرة السلطان، الرمادي، السماوة، صحراء (العرعر) قرب السعودية". وهناك معلومات تشير إلى نفي الكثير من المؤنفلين إلى دول عربية كالـ"السودان". وليس لدى الكرد وحتى منظمات حقوق الإنسان العالمية وثائق مؤكدة حول هذه الأخيرة بسبب سرية العملية.

أما بخصوص المؤنفلين الذين سلموا إلى القوات الخاصة والحرس الجمهوري في الجنوب فتم قتلهم ودفنهم بشكل جماعي. بهذا تم إنجاز أكبر عملية إفنا - عرقية في كردستان راح فيها (182000) ألف كردي، علماً أن القتل والدفن الجماعيين ما كانا بالإمكان لولا تعقيم وسكوت دوليين حول ما حدث في كردستان. فمن حق "يوست هلتيه رمان" التركيز على اشتراك المجتمع الدولي في "Génocide" ضد الكرد. وإلا كان بالإمكان وضع حدّ لفاشية البعث عندما قصف مدينة «حلبجة» وبقرار مباشر من «صدام حسين» بالأسلحة الكيماوية والتي لقي فيها أكثر من (5000) آلاف كردي مصرعهم، وهناك نقطة أخرى جديرة بالإشارة وهي أن عمليات القتل الجماعية في الجنوب ما كانت تكتشف لولا مشاهدة الأشخاص السبعة الذين استطاعوا الهرب في قلب ظلام الليالي، ثم الوثائق التي تم الحصول عليها أثناء انتفاضة الشعب الكردي في آذار 1991، والتي يقدر عدد صفحاتها بـ(4-5) مليون صفحة وتزن أكثر من 10 عشرة أطنان، وهي الآن بحوزة الحكومة الأميركية، وأنجزت منظمة حقوق الإنسان في الشرق الأوسط واعتماداً عليها كتاباً بعنوان "الجينوسايد في العراق وحملة الأنفال ضد الكرد" باللغة الإنكليزية وترجم الكتاب إلى اللغة الكردية من قبل السيد "سيامند مفتي زادة".

الأنفال التاسعة وتتماتها

نُفذت الأنفال في ثمان مراحل وهي مدونة بكل حيثياتها في الوثائق البعثية، أما التاسعة منها فلم تدون، أو بالأحرى اختلفت التسمية وتم الاشتغال على أسماء أخرى كالـ"الصمود، النصر، الحرية". وهي أسماء لتلك المجمعات القسرية التي بنتها الحكومة قبل الأنفال وزجت فيها الكرد الذين وصلوا إلى المدن عامي (1986-1987) وسكان المدن الكردية الواقعة على الحدود الإيرانية كالـ (بينجوين، قلعة دزة، سيد صادق، رانية.. الخ) من المدن والأقضية التي تم تدميرها بالكامل وتحويلها إلى بؤر ومناطق عسكرية. كانت الأنفال في هذه المرحلة بغية السيطرة على الكرد من خلال الوسائل الأكثر وضوحاً وانضباطاً بالنسبة للبعث، ونستطيع تحديدها بالشكل التالي:

I تشكيل فرق حزبية وعسكرية خاصة لمراقبة هذه المجمعات.

II بناء المجمعات من حيث مواقعها الخارجية وأشكال تخطيطها الداخلية بشكل يتناسب مع عمل تلك الفرق.

III توزيع المواد الغذائية والمياه فيها من خلال بطاقات تمنحها المنظمة البعثية المسؤولة، ويتم التأكد من خلال هذه البطاقة من حاملها.

IV فتح ملف خاص لكل عائلة وأفرادها وكتابة كل المعلومات اللازمة «بعثياً» عنها.

V مراقبة التحرك الداخلي والسيطرة على العلاقات الاجتماعية بين السكان.

VI منع تأسيس المعامل والمنشآت الحيوية اقتصادياً.

VII منع الفلاحين بالعودة إلى العمل في أراضيهم في القرى المدمرة " الأراضي المحرقة".

VIII العمل الدائم لتوسيع دائرة التبعية والتعريب.

IX ازدياد حدة الترحيل في كل من كركوك و خانقين و سنجار و إجبار المرشحين لاختيار هذه المجمعات.

تزامناً مع هذه السياسة بدأت الحكومة العراقية بمنع اللغة الكردية في الكثير من المدارس والمعاهد في المدن الرئيسية "السليمانية، أربيل، دهوك" علماً أن مشروع الإبادة بالشكل الذي حصل في القرى والمدن الحدودية ومن ثم في المجمعات القسرية شمل المدن الرئيسية أيضاً وتعرضت معالمها الحضارية والثقافية والسكانية والتاريخية إلى عمليات استمحائية شاملة. وبالتالي تحولت كردستان إلى مجالات مفتوحة للنشاط الأمني والاستخباراتي والعسكري كنشاط موازي لمثلث التبعية والترحيل والتعريب. وكان عمل البعث في هذه المرحلة في تنفيذ الأنفال سهلاً نوعاً ما، فهو يقوم بماراثوناته "الإفنا - عرقية" على الجسد الكردي الذي صار معزولاً عن العالم، والاتصال الوحيد الذي بقي لديه بعالمه الخارجي هو استدعائه للموت في جميع الحالات. إذ صارت للموت إمكانات واقعية تكمن في سياقها صورة الدولة العراقية بحديثاتها المستلهمة من تراث وتاريخ دمويان أولاً، ووضع عربي عام ثانياً، وبدت في هذا الثاني صورة "صدام" ككاريزما عربية وليست عراقية فقط. أما الوضع الثالث فهو وضع مزدوج بين البترول والصمت الدولي تجاه الكتابة الحفرية على الجسد.

مفارقة رائدة في التاريخ

يتسم تاريخ الفاشية في العراق بطابع جدّ غرائبي في أساليب إنتاجه للكاريزما والشمولية والسرية والقتل.. الخ. وضمن هذه الغرائبية تتابع تاريخي بينها وبين حركات فاشية في المكان ذاته، مرت على وجودها قرون. إذ نلاحظ أن هناك تشابهاً جدّ واضح بين شخصية "الحجاج بن يوسف الثقفي" وبين "صدام" في أسلوب القتل. كان الأول يسأل "أنس ابن مالك" لشرعنة أفعاله الإجرامية. وما على ابن مالك إلا مقارنة أفعاله بالخطوات التي اتخذها النبي "محمد" (ص) في تعامله مع الخارجين عن الإسلام والذين كانوا يرتكبون أعمال القتل، وبهذا استطاع "الحجاج" مستلهماً من نصائح عرّافه تطبيق ما يدور في رأسه من الأفكار حول القتل على الأرض. أما "صدام" فعبر عن سلوكه الدموي من خلال توظيفه لرموز إسلامية وآيات من القرآن والأحاديث النبوية كما هي الحال في الأنفال وكان عرّافه الأول هو "عفلق" والمتقفين القوميين.

ولا بد للإشارة هنا إلى نقطة أخرى في سلوكه وتركيبته النفسية التي أنتجها وضع عائلي جدّ مُعقد وفي جو من التعظيم حول الأب الشرعي له. إن هذه الشخصية تبحث دائماً عن خيوط تكشف لها ذلك الوضع العائلي المعقد الذي ولدت فيه. وحسب الدراسات السايكولوجية فإن سلوكه الحالي ليس حديثاً بل إنه يرجع إلى طفولته المنشطرة بين اللأب وأمومة وضعتها أمام سؤال دائم حول الأب. حسب المقربين لها فإن رغبة القتل والإجرام كانت صفتها المميزة في بيئتها التكريتية - العوجة - آنذاك. ولا نعرف شيئاً عن طفولة "الحجاج". أتينا بهذه المقاربة التشخيصية بغية فتح باب المجالات التي تم العمل فيها - عملية القتل - وفق شروط تاريخية وأنية في وقت واحد، وضد الكرد بأنفالات مستمرة 1975 -

1983-1987-1988 وإحدى هذه المجالات -الفضاءات- هي "نقرة سلمان" الواقعة على الحدود السعودية. كان مسؤول " نقرة سلمان" عام 1988 يسمى بـ"الحجاج"، وكان يتميز بأساليب خاصة به في القتل والدفن والتعذيب. وإحدى هذه الأساليب هي سماحه لحفر القبر للذين يموت جوعاً أو تعذيباً أكثر من عنق نصف متر خارج السور الرملي للسجن بأمتار معدودة، وفي الوقت ذاته ما كان يسمح بإعطاء الطعام للكلاب. وبهذا كان يدرّب الكلاب على أكل الموتى، ومن صفاته الأخرى كان يستمتع بمشاهدة النساء والأطفال الذين يتزاحمون من أجل الحصول على لتر واحد أو أقل من الماء في شدة الحرّ الظهرية، ثم اختيار أحد المنتظرين للحصول على الماء للتعذيب أمام الجميع. وقد ظهرت آثار فيما بعد عند العجائز الذين أطلق سراهم أنهم يعانون من نقص الملح في الجسم. والسبب هو تصفية المياه التي كانت توزع على المؤنفلين في " نقرة سلمان" من الملح قبل توزيعها. إنها لمفارقة غريبة بين حركتين فاشيتين في العراق تلتقيان في مجالات القتل الحيوية رغم بعد الأزمنة بينهما.

الأطفال والرؤية الكردية

غيّرت الأفعال الكثير من المفاهيم والمناهج الفكرية التي كانت سائدة في الثقافة الكردية، وظهرت على أثرها أشكال جديدة من الدراسات النقدية الفكرية والسياسية والتاريخية، لأن الأفعال حملت معها أبعاداً جديدة للعلاقة بين الكرد وجيرانه «مُسْتَعْمِرِيهِ». ثم المشروعات التي تخطط بأياد " فيشتوية"، وكشفت في الوقت ذاته استحالة التغيير في الموقف العربي الشعبي والرسمي وحتى الثقافي تجاه القضية الكردية والشعب الكردي باستثناء أصوات داخل النخبة المثقفة التي وقت ضد «Génocide» في كردستان كموقف لعلاقة الراحل "هادي العلوي" من قصف الـ"حليجة" بالأسلحة الكيماوية. هذا بالإضافة إلى إعادة النظر عند المثقف الكردي في علاقته مع الثقافة العربية ومشروع النهضة. دفعت هذه لعوامل وغيرها المثقف الكردي باتجاه قراءات نقدية وتحليلية للأفعال، تختلف أدواتها عن تلك الأدوات البكائية التي تعتمد الرثاء والبكائيات والتي استمرت إلى بداية النصف الأول من التسعينيات من القرن السابق.

كان التعبير Expressione العاطفي هو المولد الأساسي للجملة النقدية التي كانت تبث صور تراجيدية للآخر بدل الولوج في تشريح آليات القتل لدى القاتل ومن ثم تقريب الذات ذات المثقف- للأسباب التي تؤدي دائماً إلى التتبع في الهزيمة. ظهرت هنا ساحة لاقتالية أخرى في معادلة الإفناء والإبادة ضد الكرد. لأن القاتل يملك كل وسائل الاتصال والإعلام ويقوم بالتعظيم على كل ما يقوم به من القتل. بالمقابل يحاول الكرد الاعتماد على الرثاء والخطاب البكائي لتبيان حقيقة حال القتل المستمرة في كردستان، وبالتالي كانت الأفعال عبارة عن كتابة الذكريات عن ما جرى.

أما الخطوة الأولى للكتابة الحفرية المعتمدة على المنهج "الإحصاء - معلوماتي" هي قيام هيئات كردية وجهات دولية لحقوق الإنسان بعملية إحصائية لعدد المؤنفلين وتأريخ عمليات الأفعال وكيفية تنفيذها، ثم تدوين المشاهدات والوقائع حولها. وجاءت هذه الخطوة على أثر تلك الوثائق الحكومية التي عثرت عليها أثناء الانتفاضة الآذارية للكرد عام 1991.

وساعدت هي نفسها منظمة الشرق الأوسط لحقوق الإنسان في إصدار كتاب "الجينوسايد في العراق وحملة الأنفال ضد الكرد". ولولا هذه الخطوات التوثيقية، ما كان بإمكان المثقف الكردي تأسيس أي خطاب تحليلي حول الأنفال والتنظير فيها - يمكننا القول هنا أن المشروع الذي قامت به مجلة "ره هه ند" الكردية هو أول من نوعه في الثقافة الكردية حول الأنفال. وقبل هذا المشروع كتبت أول دراسة نقدية تحليلية في جريدة "ريكاي كوردستان" عام 1993 للكاتب "هاوري صباح"، ربط الكاتب في دراسته تلك الأنفال بالفكر البعثي -العفقي- وحاول فيها إثبات نظرية الانصهار أو الإبادة ضد الكرد كمجتمع وكنقافة. وكانت الدراسة بعنوان "الأنفال والعقل السياسي للبعث". ثم فتح ملف "ره هه ند" نفسه باباً واسعاً أمام السؤال الجوهرى للأنفال كمشروع متكامل من عناصر الإبادة والإفناء، والتي نفذت حسب استراتيجية مسبقة تعتمد المقولات النظرية صاغها البعث حول الأصالة العرقية والتي توجب سياسات التوسع القومي والعرقى جيوبوليتيكياً وثقافياً واقتصادياً. تزامناً مع هذا استطاع الكاتب الصحفي "سترات عبد الله" الولوج إلى جانب آخر من (Genocide) وهو الترحيل المستمر لكرد كركوك حتى الوقت الحالي. وقد حاول الكاتب اعتماداً على السياسات اليومية للبعث في كركوك والوثائق المتعلقة بالترحيل، أن يطرح ملفاً دائماً حول الأبعاد الخطيرة للترحيل. من هنا نستطيع القول أن الأنفال، رغم أنها حدث كارثي خلفنا، لكنها افتراض دائم أمامنا أيضاً.

الهوامش:

(*) الأنفال هي سورة من القرآن الكريم وظفها البعث في عملياته الإفناء - عرقية في كردستان لإعطاء الشرعية الدينية لها «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم والله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله إليكم وأنتم لا تظلمون» (60). «واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم النقى الجمعان والله على كل شيء قدير» (40).

(**) يحاول بعض المثقفون العرب إلى وقتنا الحالي طرح بعض المفاهيم الشوفينية ضد الكرد ويرون أن الكرد يشكل العرقلة الرئيسية أمام مشروع الثقافة العربية. ومن هذه الأسماء (حسن حنفي , ميشيل كيلو, فايز خضور, محمد عابد الجابري وزكريا تامر وآخرين).

(***) تعبير بعثي للـ"بيشمه ريه" أي "الفدائي" والحركة التحررية الكردية عموماً.

(****) فيشتويه: اسم إله هندي، لها مئات الأيدي وكل يد ستجس مكاناً.

المصادر:

- 1- مجلة "رهند" العدد 7 عام 1999
- 2- مجلة الثقافة الكردية العدد الأول -1988 الموقف الإيديولوجي لحزب البعث العفلقى من القومية الكردية للكاتب هوشيار زيباري
- 3- الجينوسايد في العراق وحملة الأنفال ضد الكرد، ترجمة سيامند مفتي زادة.
- 4- الترحيل برنامج مدرّوس في مراحل خطيرة عبد القادر سعيد مجلة "هزر" العدد 2 -1999
- 5- زهير الجزائري "آليات تركّز السلطة" الثقافة الجديدة العدد 58 عام 1993
- 6- مجلة الفكر الجديد عدد 25 - 26 عام 2000.
- 7- في سبيل البعث ميشيل عفلق طبعة دار الطليعة - بيروت 1976-.
- 8- صحيفة "نداء الكرد" العدد الثالث 2001 لندن (القانون العراقي وحملات التهجير سيئة الصيت) رياض العطار